بسم الله الرحمن الرحيم

ملحوظات د. طه العلواني

على تعقيبات المشاركين في ندوة المنهجيّة الإسلاميّة

أ. د. طه جابر العلواني

١٩٩٥-١٢-١٧

القراءة المعرفيّة للنص:

يقول المصنّف رحمه الله تعالى: بُعث رسول الله -صلى الله عليه وآله وسلّم- والناس صنفان: أحدهما أهل كتاب بدّلوا في الأحكام وكفروا بالله، فافتعلوا الكذب وصاغوه بألسنتهم، فذكر الله تبارك وتعالى لنبيّه من كفرهم فقال: ﴿**وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُمْ بِالْكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ**﴾ (آل عمران:٧٨)، ثم قال: ﴿**فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلا فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ**﴾ (البقرة:٧٩)، وقال تعالى: ﴿**وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ**﴾ (التوبة:٣٠)، وقال تعالى: ﴿**أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَؤُلاءِ أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلا**﴾ (النساء:٥١). وصنف كفروا بالله، فابتدعوا مَا لم يأذن به الله تعالى، ونصبوا بأيديهم حجارة وخُشبًا وصورًا استحسنوها، ونبزوا أسماء افتعلوها ودعوها آلهة عبدوها، فإذا استحسنوا غير مَا عبدوا منها ألقوه ونصبوا بأيديهم غيره فعبدوه، فأولئك العرب، وسلكت طائفة من العجم سبيلهم في هذا، وفي عبادة مَا استحسنوا من حوت ودابة ونجم ونار وغيره، فذكر الله تعالى لنبيّه -صلى الله عليه وآله وسلّم- جوابًا من جواب بعض من عبد غيره من هذا الصنف، فحكى جل ثناؤه عنهم فقال:﴿**إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُقْتَدُونَ**﴾ (الزخرف:٢٣)، وقال عنهم أيضًا:﴿**لا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلا سُوَاعًا وَلا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا (٢٣) وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيرًا**﴾ (نوح:٢٣-٢٤)، وقال تعالى:﴿**وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا (٤١) إِذْ قَالَ لأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لا يَسْمَعُ وَلا يُبْصِرُ وَلا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا**﴾ (مريم:٤١-٤٢).

عندما أشار أحدهم إلى أسلوب ابن تيمية، نقول: إنّ ابن تيمية له أسلوب في الاستشهاد بالقرآن الكريم، فكانت المرحلة بدأ القرآن فيها يأخذ موقع الاستشهاد والاستدلال، لكن هنا الإمام الشافعيّ والإمام مالك وما شابههم من الأئمة دائمًا يكون قولهم تعقيبًا على القرآن المجيد وليس العكس، فهذا أسلوب ذلك القرن، والنقطة الأساسيّة صعب جدًّا أن يقال فيها قولا دون عمليّة التفكيك والتركيب، فأنت عندما فككت، الأشياء التي اكتشفتها أو كشفت عنها باستنباطك للنص هي التي تجعلك تعيد تركيبها، ولكن المفهوم سواء أركبته كما كان، وهذا لا بد منه، أو بأيّ شكل تقوم أنت بتحويله إلى شواهد، فنحن ماذا نفعل ببحوثنا عندما نكتب رسالة أو بحثًا؟ نحن نقرأ نصًا ونستخرج منه معنى، ثم نجد هذه البطاقة غدًا وندرجها في بحثنا في الموضوع الفلانيّ، لأننا أدركنا أنّها هي المناسبة، فنحن في الحقيقة نقوم بعمليّة تفكيك للكتاب ولفكر هؤلاء الناس ووضع كلامهم في سياقنا وليس في سياقهم هم، وأحيانًا لو سألت المؤلف وتقول له: هل أنت تقصد هذا المعنى الذي ذهبت أنا إليه بعد أن استنطقت نصّك؟ سيستنكره ويقول لك: لا، وإنّما أنت أخذت كلاميّ وأخرجته من سياقي ووضعته في سياقك أنت، فهذه العمليّة ضروريّة، كثير من النصوص كهذا النص تعود مثلا لـ ١٩٥هـ واستخدام كلمة (صنف، كفر، الابتداء) نصب الحجارة وتحويلها آلهة، الصور المستحسنة، نبزوا أسماء افتعلوها، نحن بعد القرن الثاني يصعب أن تجد من يستعمل نبزوا أسماء، يستعمل نبزوا ألقابًا، يستعمل «**إن هي أسماء سميتموها**»، سمّوا أشياء حيث اللغة تختلف، هنا سيفرض علينا هذا النص مَا الذي سنفعله. إضافة إلى عمليّة التفكيك والتركيب والكشف عن النموذج، وهذا نموذج واضح لإنسان يريد أن يشد الناس كلّهم للنص، النموذج الكامل وراءه يريد أن يشد الناس شدًّا إلى النص؛ أي: إنّ في رأسه قضيّة يحس أنّ هناك معركة بين النص أو العقل أو شيء آخر، فيريد أن يشد الناس إلى النص ويجعلهم يعيشونه بشكل كامل، فلا يوجد عنده كلام؛ حيث إنّ كلامه بسيط جدًّا والنصوص أكثر من الكلام، يريد أن يبرهن أنك أنت لست بحاجة إلى شيء آخر، يجوز هذا وهذا أهم نموذج يكاد يكون كاملا في ذهن كاتب كالإمام، كان يخوض معركة النص والرأي والعقل ويكتب في مقدّمة كتابه الأصوليّ والذي هو مكرّس لمعالجة هذه القضيّة.

شيء آخر وهو استعمال كلمة «**العجم**»، هذه لها عصر وتوقفت عنده، لتفسح صدرها بعد ذلك للموالي، ثم لتختفي الكلمتان وتصبح ديلم وراء النهر، مَا وراء النهر... إلخ في لغات مختلفة، هنا هذا النوع من النصوص يفرض علينا أن نفكّر فيما نسميه بالتطوّر الدلاليّ للكلمة، إنّ الكلمة ككائن حي، تولد صغيرة كطفل وتنمو وتشب وتصل مرحلة الكهولة وتشيخ وتنقرض ويولد لها بديل، وأحيانًا يتم لها عمليّة تجديد من خلال أفكار الاشتقاق، بعث وتجديد وإحياء لتنزل بشكل آخر، هنا تأتي الخطورة على طريقة تعاملنا مع نصوص الكتاب والسنّة، يعني يأخذ بالنص عندما يسمعه من المذياع أو يقرأه في أيّ كتاب ويطير به، فمثلا قال رسول الله –صلى الله عليه وآله وسلّم– كذا وكذا وحرام عليك أن تفعل كذا وكذا، لا بأس، ولكن إذا كان النص يتعلق بقضايا تحريم وتحليل وأوامر ونواهي فاحذر واحرص على أن تفهم مَا إذا كان في أيّ كلمة أصابها تطوّر مَا أنت غافل عنه، وبالتالي فكل التفسير أو النظريّة التي تبنيها عليها خطأ في خطأ، فعمليّة القراءة المعرفيّة للنصوص عمليّة ضروريّة وهي جزء أساسيّ من فكرة أسلمة المعرفة ومن هذا النوع من القراءة.

بعض الأخوة أشاروا إلى أنّ الإنسان من المفترض به أن يكون موضوعيًّا، ونقول: إنّ الموضوعيّة أسطورة، فأنا الآن أكلمك وعندي معتقد وعندي نموذج وعندي هدف وغاية وبيئة وثقافة ولغة ومستقبل وماضي. الموضوعيّة أسطورة ضحك علينا بها الغربيّون فترة طويلة ليقنعونا بتقبل أفكارهم وما جاءونا به، الآن حينما تقبلنا أفكارهم وما جاءوا به اكتشفنا أنّ الموضوعيّة خرافة وأسطورة لا وجود لها، فهم متحيزون في كل شيء، فهذه المدرسة قلتم لي: إنّ الإنجليز بنوها، فعندكم مثلا مباني سودانيّة بناها السودانيّون الأصليّون، الكوخ معروف ونعرفه نحن ونعرف كيف يُبني، ولكن هناك مباني، هذا المبنى الذي كان أهلنا يبنونه له خصائص وله قضايا مرتبطة بأفكار حضاريّة، تشير إلى نموذجنا فأنا زرت إحدى القرى في الجزائر وشاهدت كيفيّة تصميم البيوت، وكانت هناك بيوت خاصّة يسكنها أناس يسمونهم (العزّابين والعزّابات)، كل على حد هؤلاء القوم هم الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر، صممت بيوتهم على حيث إنّ كل بيت لا يكشف البيت الآخر، فما الذي جعل المهندس أو المصمم أن يصمم بهذا الشكل، لولا أنّ تصميم من مبدأ وعقيدة ويقين بعدم كشف العورات ووجوب سترها، على عكس الغربيّين والذين هم أبناء حضارة (عريانة) أصلا،

جذورها الإغريقيّة حيث إنّ أحسن الفنون عندهم مَا كان عريانًا، فانحياز ابن الغرب ضدّي كي أقلده وأتبعه جعله يدخل إلى أنماط حضاريّة مختلفة.

عقد المعهد ندوة في القاهرة قبل حوالي ثلاث سنوات، سميت بندوة «**التحيّز**» للعلوم الاجتماعيّة والإنسانيّة، وفي حينها كانت الندوة موفقة جدًّا، وشارك فيها مسلمون وغير مسلمين، وتعمّدنا فيها حيث أحضرنا فيها مهندسين ومعماريين، شارك أناس أيضًا في العلوم الاجتماعيّة والطبيعيّة والإنسانيّة، سميت في تلك المرحلة، حتى أنّ فهمي هويدي وغيره كتبوا عنها (ثورة الثقافة داخل القاهرة)، إنّ هؤلاء أثبتوا على مختلف مشاريعهم أنّ هناك تحيّزًا في كل شيء، وأنّ الموضوعيّة أسطورة، لا وجود لها؛ تحيّز في الفكر والمعرفة والجلسة التي نجلسها، حتى أنّ المقاعد التي نستخدمها قد تصيب الواحد منّا بعدة أمراض، لأنّه صنع نموذج آخر وليس نموذجي وحياتي وبيئتي، فقراءتنا للنصوص والبعد المعرفيّ، والقراءة المعرفيّة، ومحاولة الكشف عن النظام المعرفيّ الذي انطلق النص من داخله من خلال التفكيك والتركيب والتحليل ومعرفة النموذج الكامل أمر في غاية الأهميّة والخطورة وإلا لن نفهم على بعضنا بعض.

ثمة نقطة أشار إليها أحد الأخوة حول وجود علماء وجود علماء غربيّين يتبنّون رؤية عالميّة مقاربة لما ننادي به، فما هو موقفنا منهم وهل ننفتح عليهم؟

نعم؛ فحقيقة هذا هو الميدان أو المجال الذي لا بد أن يجري بيننا وبينهم حوار على مستوى المنهاج وعلى مستوى الأزمة المعرفيّة القائمة عندهم، هناك قضيّة أودّ أن أنبه إليها في هذا الشأن، لو حصل الآن مثلا أنّ واحدًا جاء يصرخ إلينا ويقول لنا: إنّ هناك عصابة تريد أخذ المال من أيّ واحد منّا يحمل معه مبلغًا ما، فمن الذي يخاف منّا؟ بالطبع من يحمل نقودًا أكثر، والذي لا يحمل إلا القليل أو لا يحمل فلا يخاف نهائيًّا.

الأزمة المعرفيّة والمنهجيّة والقلق الذي أصبح يسمى بـ (القلق المعرفيّ) و(القلق المنهجيّ) يعانيه المتقدمون معرفيًّا، الأغنياء في قضايا المعرفة والقضايا المنهجيّة، الذي مثلنا حقيقة إحساسهم بهذا الموضوع محدودًا جدًّا، لأنّه قد يصادف أحدنا من يقول له: لماذا تتعب نفسك وأنت قلق أثناء تكلمك وشرحك وتعليمك، فكل ذلك موجود بالقرآن، والقرآن موجود بين أيدينا. اذهب واقرأ لك جزءًا من القرآن فستحصل على مَا تريد وستأخذ الأجر

والثواب، فلا داعي لكل ذلك الكلام وهذه المحاضرات... إلخ، هذا صحيح إلى حدًّا كبير؛ إنّه باستطاعته أن يتعامل مع القرآن المجيد بمستواه ووضعه ولا يريد أكثر من هذا، فلا يوجد عنده أي مشكلة ولا يحس بأيّ صعوبة.

لكن العالم الغربيّ الآن يفور ويكاد يغلي لتقدمه المعرفيّ والمنهجيّ والعلميّ حيث إنّ عنده أزمة حقيقة جدًّا يبحث ليلا ونهارًا ومراكز بحوثه تعمل دائمًا في كل شيء، سأضرب لكم مثالا: الدكتور فارقي –رحمة الله تعالى عليه– قال لنا مثالا: إنّ كارتر دعاه في عهده هو ومعه ثمانية إلى عشرة علماء من أديان مختلفة، رئيس البيت الأبيض كان يجلس يومًا كاملا يناقش مع هؤلاء العلماء موضوعًا واحدًا هو «**مفهوم التوبة**»؛ مَا معنى التوبة في الأديان كلّها؟ وكل واحد أدلى بدلوه، وكان مناسبة ذلك عندما قال الخميني: لن أغفر لأمريكا إلا إذا أعلنت التوبة. فأحبّوا أن يعلموا مَا المقصود بالتوبة؟

في أحد الأيام كنت أستمع للمذياع، فسمعت نقاشًا حول أنّ هل الأمم إذا أخطأت بحق أمم أخرى تجب عليها التوبة؟! وكيف تكون توبة الأمم والشعوب والحكومات؟! موضوع بالطبع لم يخطر على بالنا، فلا أتذكر أنّ هناك كتابًا أو كاتبًا من المسلمين أقدمين أو محدثين تناول فكرة توبة الأمم والشعوب والحكومات عن اعتداءاتها على أمم أو شعوب أو حكومات أخرى، أنا بالنسبة لي لا أذكر هذا، ربما نظنّ أنّ المقصود بذلك أنّ القرية الظالمة كيف تتوب وتعود إلى الله تعالى، نقولها بعموميّات لكن على وجه التحديد كيف تكون التوبة وماذا يشترط بها؟ فهذا غير موجود عندنا.

كاتب كتب في كتابه وقال: إنّنا أخطأنا في حق اليابان بقصف بعض مدنه، وتبنا إلى اليابان وتأسفنا لها وقدمنا لها بعض التعويضات، فهل هذا يكفي أو لا؟! وبدأ الجمهور يناقش بالتليفون المتحدث والمذيع الذي يقدم البرنامج، وأذكر – وللأسف الشديد– أنّ المتحدثين من اليهود والنصارى، فاليهود مثلا كانوا يتكلمون عن توبة بني إسرائيل وكيف كان بنو إسرائيل أنّهم عندما يخطئون في حق الآخرين كيف تكون توبتهم وذكروا مثالا على ذلك: فلسطين والفلسطينيين وكيف أرجعنا لهم أراضيهم وأنّ هذه توبة... إلخ، ومع العلم أنّ هذا أمر مؤصلا في تراثهم.

لقد وصل البحث الفكريّ بهؤلاء المفكّرين إلى هذا النوع من البحوث لأنّهم يعانون من أزمة، عندهم إحساس بأزمة أخلاقيّة، هناك بعض أثار قضيّة الشعب العراقيّ وأنّ قضيّتهم لها أكثر من سنة وأنّ الأطفال يموتون من الجوع، فهل هذا جرم من الحكومة الأمريكيّة أم من الشعب الأمريكيّ أم من الأمم المتحدة؟ هذه مفاهيم تدل على وعي على قضيّة مَا وإحساس بأزمة، فمثل هذا كثير.

الكثير من الندوات عقدت حول الصحوة الإسلاميّة وفي بلاد الصحوة الإسلاميّة، وتجاوزت هذه الندوات منذ الثورة الإيرانيّة إلى يومنا هذا الـ (٣٠) ندوة ومؤتمرًا لمختلف مراكز البحوث حول هذا الأمر؛ فهم قد رصدوا الأزمات ومصادرها وقضاياها المختلفة، وبدءوا بالعمل لأنّهم في سقف ومستوى معيّن يفرض عليه هذا، لكن بالنسبة لنا وضعنا الذي نحن فيه وضعنا المعرفيّ المتواضع يجعلنا لا نحس بأزمة، نقول: لماذا إسلاميّة المعرفة، ولماذا كل هذا الكلام؟! وعندنا أمور كثيرة وطيبة والحمد لله، فيما نريد قدرة جيدة وعالية جدًّا مَا لم ننفتح على العالم ونشعر بأننا جزء منه، الآن لم يعد المحليّ محليًّا، العالم كلّه بدأ يتحدث من ذلك التاريخ وقبله عن مَا فكرة الحدود في الإسلام؟ فيمكن أنّ الدراسات التي صدرت عن هذه القضايا لو أردنا أن نحسبها في أمريكا فتكون أكثر من كتبنا الفقهيّة القديمة والحديثة التي تحدثت عن الحدود، لماذا ذلك؟ لأنّ الحدود بالنسبة لهم، يوجد عندهم إحساس بالمشكلة ويجب أن يوجد الحل، فما عنده استعداد أن ينام قلقًا، فمنذ بداية أزمة مَا يبدأ بعلاجها، وقد لا يصل إلى الحل ولكن يستمر في ذلك، فالأزمة الآن في مستوى المعرفة والمنهج؛ العلوم الاجتماعيّة في أزمة، والعلوم الطبيعيّة في أزمة، والمناهج المعرفيّة في أزمة، ومطلوب حلولها، هناك عمل كثير يجري على هذه المستويات، ونحن جزء من هذه الحلول مشكلتنا إلى الآن أنّنا لم نستطع أن نبلور خطابنا ليكون عندنا خطاب قادر على الوصول إلى هؤلاء.

فصياغة المسلمين –وللأسف– لخطابتهم غير ناجحين بها؛ سواء لخطابتهم الداخليّة أو العالميّة، ونحن خطابنا الداخليّ لم نصغه؛ فلذلك حوارنا الداخليّ يكون حوارًا فارغًا. لذلك؛ صياغة الحوار تعتبر من أدق وأكثر الأمور صعوبة في مثل هذه الأحوال، فكيف بخطابنا العالميّ؟! فنحن في ثقف معرفيّ متواضع متراجع على قدرنا، لا نستطيع أن نتفاهم مع بعضنا البعض، وعندما نجيء للمجال العالميّ فسيكون من الصعب علينا أن نصوغ هذا الخطاب،

فالآن حوارنا مع الآخرين حيث بدأنا لأول مرة بالتحدث عن إسلاميّة المعرفة، فيسألون أسئلة محقة بالنسبة لهم، يريد أن يفهم؛ لأنّ منهجه ونموذجه قائم على الوضعيّة، ونحن نجيء ونتكلم له عن الوحي كمصدر للمعرفة، فهذه ليست نقلة سهلة، فالحوار يجب أن يجرى والخطاب يجب أن يُصاغ، يجب أن نعيد النظر في صياغة خطابنا الداخليّ، ليصبح خطابًا يتحدث على هذه المستويات، فلمّا يقول قادة المسلمين أو بعضهم: لنعمل فيما نتفق عليه وليعذر بعضنا بعضًا فيما نختلف فيه. هذا بالطبع في الإطار الجزئيّ، لكن نحن متفقون على النموذج والمنهج الكليّ، وعندنا اختلافات على نماذج جزئيّة، فحينما ندرك أنّ هذه النماذج جزئيّة فلا يوجد عندنا مشكلة وستعذرني وأعذرك دون حاجة إلى تفاوض، ولكن حينما أضع الجزئيّ موضوع الكليّ، لا بد أن تقوم حرب.

فالخلاصة أنّني أتفق مع الكل، لكن لا بد من صياغة الخطاب داخليًّا وخارجيًّا لكي نخرج من هذه الحالة.

فنحن يمكنا إشراكهم والدخول معهم بحوار على هذا الأساس حتى قبل التغيير، أي: يكون النقاش على هذا المستوى المعرفيّ، فنحن نناقش علماء ويناقشوننا في هذه القضايا دون نظر إلى اختلاف الدين، ونكتب أحيانًا مقالة إسلاميّة في موضوع إسلاميّ ونستشهد بأقوال بعض المستشرقيّن دون حرج في هذا.

تحليل النص وقضيّة التفكيك والحكم على الفكرة ظاهرها وقراءة النص وكيف ننطلق منه؛ فأحيانًا نتيجة الخبرة والتجربة والممارسة قد يبني الإنسان لنفسه طريقة في عمليّة التحليل، دون خروج على الإطار العام؛ حيث إنّ هناك إطارًا عامًا مشتركًا كلنا نشترك فيه حينما نريد أن نتعامل مع النص، وقد أشار بعضكم بأنّه هل نعيد التفكيك والتركيب؟ نقول: إنّه بالنسبة للقرآن الكريم، فالمفسرون معظمهم فعل هذا، أي: لو جئت إلى تفسير الجلالين يكاد يفسّر الكلمة بالكلمة، ولو جئت إلى تفسير البيضاوي وهو اختصار لتفسير النَسَبي يكاد يفسّر على مستوى الآية، أي: إنّ عمليّة التفكيك عنده تجري بتفكيك السورة إلى مستوى السورة ويقوم بعمليّة تفسير.

المتكلمون في كلمات القرآن وغريب القرآن وكذا، كلّهم على مستوى الكلمة يتكلمون بهذا، فيقومون عمليًّا بها، والتفسير يتناول هذا الأمر خاصّة التفسير الذي يتعلق بالكلمة

والإشارة، وهناك التفسير الموضوعيّ، وهناك التفسير على مستويات مختلفة لكنه قائم في أذهان المفسرين تقريبًا وفي أذهان شرّاح الحديث فهذا أمر واضح، أي: يصلون إلى مستوى الكلمة ويقولون: لعلّ رسول الله -صلى الله عليه وآله وسلّم- أراد بها كذا وكذا وهذه عند العرب معناها كذا وكذا، وهذه أطلقت بالوقت الفلانيّ وأريد بها كذا وكذا، لكن كما يقال: هل نحن من خلال التفكيك والتركيب نصل للمعرفة؟ أي: هل التركيب والتفكيك مصدر للمعرفة؟